الفصل العاشر

اليهـــــود

من الممكن فهم تاريخ بقية أوروبا دون حاجة إلى وضع اليهود فى الاعتبار بشكل أساسى بينما يصبح الأمر معكوسًا فى أسبانيا حيث لعب اليهود دورًا لا يقارن به دور اليهود فى أى مكان فى أوربا. فلم يكن لليهود أية عمارة قط عبر التاريخ إلا فى أسبانيا الإسلامية ولكن معابدهم رغم تميزها كانت ذات صبغة إسلامية، وقد كان لهم بجانب العمارة أدب وثقافة متميزان بطوابع عبرية مثلهما مثل العمارة، ولكن ذلك ما كان ليكون دون احتكاكهم بالإسلام فكما صبغت معابدهم بصبغة إسلامية فيما قلنا منذ قليل فقد كتب أعظم كتابهم بالعربية ولولا اتصالهم بالعرب ما كانوا- أبدًا- ليحتفلوا بالفسلفة الدينية فهم فى الأول وفى الآخر تابعون أيضًا للحضارة العربية إلا أن إهمالهم أو دراستهم كتيار مواز وآنى غير ممكن، فلا شك أن تاريخ أسبانيا قد كان نسيجا مسيحيًا إسلاميًا يهوديًا، وكل طائفة بشرية من هؤلاء حظيت بتميزها لكن تيار وجودها قد حفره لها وجود الآخرين.

تفوق مستأجر «من الباطن»

«إن الطائفة اليهودية فى أسبانيا تتميز فى وجودها على القاعدة العريضة للشعب العبرى المتناثر فى العالم بأنها كانت فريقا فريدًا ومدهشا» هكذا يبدأ أميريكو كاسترو عرض قصة يهود أسبانيا بادئا بطرح قصتهم المعروفة مع المصريين القدماء ثم الرومان ثم المسيحية، وكيف أن العهد القديم صار جزءًا من الديانة المسيحية، مما قرب اليهود من المسيحيين وإن شعر اليهود بغير ذلك. كما يتلو الكاتب هذا العرض بطرح قضية إحساس اليهود بالعزلة واتجاههم للتقوقع وما انتهى به تناقضهم مع المجتمعات التى عاشوا فيها من اضطهاد لهم لم يستطيعوا له دفعا لأن عقيدتهم رغم عدوانيتها الرافضة للتعامل مع الآخرين اجتماعيًا لم تكن مصحوبة بروح عسكرية، ومع ذلك فقد استطاعوا أن ينفذوا إلى كل حفرة ومسرب،

وضمنوا لأنفسهم البقاء فى ظل عمليات تصفية مستمرة، فهم قد لقوا اضطهاداً من القوط فسعوا إلى مساعدة العرب ونالوا كامل حقوقهم فى ظل الوجود العربى، ومن نبغ منهم كان ذلك بفضل الإسلام ونبوغه- وإن تميز بطوابع عبرية- فهو فى إطار الحضارة الإسلامية. وعندما بدأ اضطهادهم على يد المرابطين انتقلوا إلى المنطقة المسيحية من أسبانيا، وقاموا تقريباً بجميع وظائف الدولة ولا سيما الاقتصادية، ومن ثم فقد مارسوا دور الرابطة بين المسلمين والمسيحيين ينقلون صيغ الحياة الإسلامية فتقبل منهم لأنهم ليسوا أهل إسلام، وبذلك كان دورهم ليس أقل خطراً من دور المستعربين فى نقل الحضارة الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية.

ألفونسو العالم واليهود:

لاشك أن اهتمام الفونسو العالم بالعلم كان العامل الأكبر فى نقل التراث الإسلامى إلى قشتالة وترجمته، ولكن إذا طرح السؤال: لماذا اهتم ألفونسو العالم بالعلم؟ سنجد أن الإجابة عسيرة لعدم وجود صورة مكتملة عن تكوينه وتعليمه قبل تولى الملك. قد يكون أحد العوامل فى ذلك إيمانه بالنجوم، وبالتالى اهتمامه بالفلك مما فتح الباب لدخول العلوم الأخرى بصحبة الفلك، ولعل هذا العامل كان غير فعال وغير حقيقى لا سيما أنه يوجد من الوثائق ما يثبت اهتمام الملك بالفلك كعلم (وليس كتنجيم). فلابد- إذن- أن تكثر العوامل التى دفعت الملك لذلك، ولنا أن نتصور من بينها عامل التواجد اليهودى بكثرة فى قشتالة فى القرن الثالث عشر حيث ولى اليهود ظهرهم لملوك الإسلام الآفلين، وتوجهوا لبلاط قشتالة، ولقد ترجم اليهود العهد القديم بجانب العهد الجديد إلى اللغة القشتالية العامية التى أصبحت لغة حياتهم اليومية. أليس من الممكن أن تكون ترجمة اليهود للعهد القديم والإنجيل لافتا لنظر ألفونسو لإمكانية الترجمة إلى القشتالية العامية، وقد تمت بها كل الترجمات، وجدير بالذكر أن مدرسة مترجمى طليطلة قد اجتذبت الأجانب يقبلون عليها ليترجم لهم اليهود والمسلمون إلى القشتالية ثم ينقل هؤلاء الأجانب ما ترجم إلى اللاتينية، لأن اليهود لم يهتموا باللاتينية، ومما هو جدير بالذكر أنهم استخدموا الترجمة القشتالية فى صلواتهم، ولم يستخدمها المسيحيون فى ذلك بل إن التفتيش فى القرن الخامس عشر سيدين الأسبان الذين يستعملون فى صلاتهم أسلوباً يشبه اليهود، أي باستخدام الترجمة القشتالية للإنجيل. وعلى أى الأحوال فإن القرن الثالث عشر سيشهد

نشوء النثر الأسبانى على يد اليهود المترجمين فى بلاط ألفونسو العالم، وهذا دور ليس بالهين إذا ارتبط بالمساهمة فى نقل الحضارة الإسلامية فى جو يخلو تماما من العلم والاهتمام به بين أشراف البلاط ونبلائه من الأسبان.

ولعل النثر فى نشأته كان أقرب إلى العقلانية والتحليل مما يتسم به «البلاط» لا الناس، ولذا بالعودة إلى ملحمة السيد السابقة لهذا التأثير اليهودى نجد صورة لعمل ملحمى يبدو من خلاله انعدام الفردية إنما هناك شخوص تستند إلى عقيدة وقيم لا يتجه فيها الناس إلى الموضوعية والتجريد، وإنما الأشياء ترى فيما وراءها من قيم، وقد انعكس ذلك فى اللغة التى لم تلتزم منطقا أو نحوا بقدر ما احتكمت إلى البديهة والارتجال.

الأدب لم يوجد مشهدا يعرض ويسلى

ومن جديد حتى نفهم نشأة النثر الأسبانى فى القرن الثالث عشر تقريبًا، علينا أن نتحرى عن الشعر الغنائى المؤسس على التجربة العاطفية دون تبرير عقائدى موضوعى، وسنكتشف أنه لم يوجد فى قشتالة فى القرون ١١، ١٢، ١٣، فى الوقت الذى تكثر فيه الأناشيد التى تتغنى بالمآثر، ومع ذلك فإن الشعر الغنائى ألح على قشتالة من الجهات الأربع الأصلية حتى ولو كانت قشتالة تبذل فى مقاومته نفس الطاقة التى كان عليها أن تستخدمها فى قشتلة المناطق التى كان فيها هذا الفن ممكنا ومعتبرا. فقد كان من السهل استخدام اليهود العارفين للغة العربية والقشتالية مع المسلمين الذين تقشتلوا فى أن يضعوا فى الرومانث حكايات ألف ليلة وليلة المعجبة والشعر البديع لممالك الطوائف أو لابن حزم، لكن شيئا من هذا لم يحدث بل إن تفكير ابن رشد أو ابن ميمون لم يخترق القشتالية، ولو وقعت قشتالة فى هذا الإغراء ما صنعت نفسها ولا خلقت صيغة قومية لأسبانيا، ولهذا لم تحاول قشتالة الهروب إلى حوصلة عقيدتها (كما حدث فى أراجون وجليقية حول عقيدة سانتياجو)، نفس الشىء يبدو عند برنال دياث دى قشتالة، كان ينام بملابسه كاملة وسلاحه حتى شيخوخته. لقد عاش القشتالى بكينونته فى تكاملها بوجود ميسطر عليه دون اتكاء على الإيمان محروم من التعبير العاطفى والعقلانى الذى زرعه المسلمون بكينونتهم المطابقة لعقيدتهم. إن العلاقة الاجتماعية والطهارة الأرثوذكسية كانت حواجز غير مناسبة للتعبير المكتوب والمسموح به اجتماعيا. إن الشعر العربى عاش فى قشتالة كنهر تحت الأرض، وفقط سيظهر بعد ذلك كخيوط رفيعة من الماء الرقيق والمبعثر.

أما أغانى التروبادور البروفنسالية، فقد جاءت إلى اسبانيا، وأخذت لمسة قشتالية فى إهابها، لكنها ظلت فى حيز الدعاية السياسية الدولية لصالح أسبانيا فى حربها ضد المسلمين، وتلك الأغانى كانت فى برودة الثلج، خالية من العاطفة أو التأثير فى القشتاليين، ومن الممكن أن تصبح عروضًا وتسلية للبلاط، وللبلاط فقط فيما يشبه ورود الأوبرا الإيطالية إلى أسبانيا فى القرن الثامن عشر. لقد كانت تسلية الطبقة المستريحة حتى القرن العشرين، وصاحب ذلك فشل كل التجارب فى التغنى الأوبرالى بالأسبانية لأن تأثيرها- ببساطة- كان فكاهيا، وقد أعجب المشاهدون بموسيقاها فى الوقت الذى ظلت دراميتها زيفا أو طرفة. كذلك أغانى التروبادور لم تجد مكانا فى البلد الأسبانى إلا لموسيقاها ثم لمحاكاة البلاطات الإسلامية والأوربية فى مثل هذه المظاهر وقد تم تفريغ الشحنات الغنائية- والفاحش منها بصفة خاصة- فى اللغة الجليقية التى تأثرت بالتروبادور، وقد استبدل الأسبان- بعد- بأغانى تلك اللغة أغانى التروبادور.

عودة إلى اليهود[1]:

يمضى مؤرخنا فى تعداد الوظائف المتنوعة التى قام بها اليهود فى أسبانيا، فحتى نهاية القرن ١٥ كان كل الأطباء تقريبًا من يهود يحملون الجذور الإسلامية لمن يتعاملون معهم، كذلك سيطر اليهود على النشاط الاقتصادى بجانب مختلف مجالات الحياة العملية التى لم يكن للأسبان فيها باع، وبعد أن انتهى الأسبان من القضاء على المسلمين تنبهوا لذلك وملأ نفوسهم الغضب من هذا التفوق اليهودى فانقض التفتيش على اليهود، وقد كانت العلاقات اليهودية- المسيحية فى تعقيداتها ذات آثار أخرى لا تدخل فى الهدف الذى نعرض من أجله الكتاب، وذلك مثل الفكرة اليهودية الخاصة بنقاء الدم اليهودى وانعكاسها فى السلوك الأسبانى تجاه المسيحيين الجدد الذين لا يتميزون بنقاء الدم المسيحى مثل المسيحيين القدماء.

---

(١) راجع الحديث عن اليهود فى أصل الكتاب المترجم ص ٤٩٣ - ٥٨٦ وفكرة نقاء الدم بين اليهود والمسيحيين وأثرها على ظهور محاكم التفتيش ص ٥٣٧ - ٥٦٠.